ثمرات التـــوبة

- كسب المغفرة والجنة .
- تجديد الإيمان .
- تبديل السيئات حسنات .
- الانتصار على العدو الدائم .
- الانتصار على النفس الأمارة بالسوء .
- انكسار القلب لله .
- محبة الله تعالى .
- فرح الله بالتائب .

ثمرات التوبة

وللتوبة النصوح إذا تحققت أركانها، واستوفت شروطها: ثمار دانية القطوف، يجدها كل تائب فى نفسه وفى حياته الدنيا، وجزاء الآخرة خير وأبقى، وهى ثمرات أخروية ودنيوية، روحية ومادية، أخلاقية وعملية، فردية واجتماعية.

١ - تكفير السيئات ودخول الجنات:

وأولى هذه الثمرات: كسب المغفرة ودخول الجنة، التى أعد الله فيها لعباده الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

لقد أمرنا الله تعالى فى كتابه بالمسارعة إلى مغفرة من ربنا، وإلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، ولكنه بين لنا فى جلاء: إن المتقين ليسوا ملائكة أطهارا، ولا أنبياء معصومين، ولكنهم بشر من خلق الله، يصيبون ويخطئون، ويطيعون ويعصون، ويستقيمون وقد ينحرفون، بيد أن مزيتهم على غيرهم أنهم لا يتمادون فى الخطايا، ولا يذهبون فى المعاصى حيث لا يعودون، بل سرعان ما يعودون إلى باب ربهم، واقفين على عتباته، مبتغين لمرضاته، طالبين لعفوه، سائلين لمغفرته، راجين لرحمته، يقول تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

---

(١) السجدة: ١٧. (٢) آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥.

فوصفهم الله تعالى ببذل الندى ، واحتمال الأذى ، حين وصفهم بالإنفاق فى حالتى اليسر والعسر ، وكف النفس عن الغضب ، بل يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ، ثم بين سبحانه أنهم إذا ضعفوا يوما فوقعوا فى كبيرة مثل فعل الفاحشة ، أو فى صغيرة ، وهو ما عبرت عنه الآية بظلم النفس ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

رتبت الآية الكريمة على التوبة النصوح أمرين : تكفير السيئات ، ودخول الجنات .

وقد بين الغزالى رحمه الله :

أن للتوبة ثمرتين :

إحداهما : تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له .

الثانية : نيل الدرجات حتى يصير حبيبا لله .

وللتكفير أيضاً درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب، والتدارك بالحسنات- وإن خلا عن حل عقدة الإصرار - من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلا ، فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها ، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها : أن قول الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٢) صدق ، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح

---

(١) التحريم : ٨ .

(٢) الزلزلة : ٧ .

فى الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات ، وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل ، فترفع كفة السيئات ، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تتقيها ، كالمرأة الخرقاء التى تدع الغزل اتكالاً بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد ، وتقول : أى غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا ، بل أقول : الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب [1] .

٢ - تجديد الإيمان :

ومن الثمار اليانعة للتوبة: أنها تعمل على تجديد إيمان التائب وترميمه بعد ما نالت منه الخطايا ما نالت، فإن الذنوب والمعاصى التى تقع من المسلم تخدش الإيمان وتجرحه جرحا يصغر أو يكبر، بقدر حجمها من الصغر والكبر، وبقدر كمها من القلة والكثرة، وبقدر كيفها من التأثير فى النفس، فالمعصية التى يفرح بها صاحبها ، ويستعيد ذكراها بتلذذ ، غير التى يحزن لوقوعها ، ويشعر بالأسى كلما تذكرها ، والمعصية التى يجاهر بها مرتكبها ويتبجح، غير التى يستخفى بها ، ويخجل منها ، ويسأل الله أن يسترها عليه ولا يفضحه فى الدنيا ولا الآخرة .

والمعصية التى تقع فلتة من صاحبها كأنها بيضة الديك كما يقال، غير التى تتكرر منه ، ويصر عليها مواظبا فيعلق القلب بها .

---

(١) انظر : الإحياء : ٤ / ٤٨ .

وعلى كل حال ، يظل هناك للمعصية تأثير سلبى على إيمان المكلف ، قد ينتهى به إلى الكفر والعياذ بالله .

وفى الحديث الصحيح : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان على رأسه كالظلة ، فإذا أقلع، رجع إليه » (٢) .

ويقول : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! من لا يأمن جاره بوائقه » (٣) .

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٤) .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (٥) . ومفهومه أن من لم يفعل هذه الخصال قد انتفى عنه الإيمان .

ما المراد بنفى الإيمان فى هذه الأحاديث ؟ لا نريد أن ندخل فى خلاف الفرق حول هذه النصوص وما شابهها .

ولكن المتفق عليه: أنها تنفى الإيمان الصادق والكامل، وتغشى نوره بظلامها، وصفاءه بسوادها، فلا يصبح الإيمان بعد المعصية بقوته ونقائه وكماله وتأثيره كما كان قبل المعصية .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ، صحيح الجامع الصغير (٧٧٠٧) .
(٢) رواه أبو داود والحاكم عن أبى هريرة ، المصدر السابق (٥٨٦) .
(٣) رواه أحمد والبخارى عن أبى شريح ، المصدر السابق (٧١٠٢) .
(٤) متفق عليه عن أنس ، نفسه (٧٥٨٣) .
(٥) متفق عليه عن أبى شريح وأبى هريرة ، صحيح الجامع (٦٥٠١) .

ولهذا كانت التوبة الصادقة النصوح تجديدا للإيمان : تقويه بعد ضعف ، وتوقظه بعد رقود ، وتثبته بعد زعزعة ، بما تضيف إليه من أشواق وبواعث ومشاعر حية وجديدة ، تحفز إلى الخير ، وتزجر عن الشر .

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يعطف الإيمان على التوبة ، ويقرنه بها ، لأنه مكمل لها ، بل مصحح لوجودها ، كما فى قوله تعالى فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . . ﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾(٢) .

ولتجديد الإيمان بالله فى نفس التائب دلائل وآيات يعرفها صاحبها ويعيشها .

منها : أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه « البَرُّ » وهذا البر من سيده كان مع كمال غناه عنه ، وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن كل ما سوى الله ، ولا يشتغل إلا بذكره وشكره وحسن عبادته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى .

ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة ، ولو شاء لعاجله بالعقوبة ، ولكنه الحليم الذى لا يَعْجَل ، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه « الحليم » ومشاهدة صفة « الحلم » والتعبد بهذا الاسم .

ومنها : معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بضعفه

---

(١) الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .
(٢) طه : ٨٢ .

وعجزه ، وغلبة هواه ،وشيطانه عليه ، ونحو ذلك ، فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغاله بذكره وشكره،ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهد بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله في مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلاً محموداً ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحاً وابتهاجاً به ، ومعرفة له باسمه « الغفار » ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبداً بمقتضاها ، وذلك أكمل في العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن تكتمل للتائب مراتب الذل والخضوع لربه جل شأنه ، والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه . فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ، ولو قَدَرتْ لقالت كقول فرعون ، ولكنه قدر فأظهر ، وَغَيْرُه عجز فأضمر ، وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاة ذل العبودية ، وهو أربع مراتب :

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق ، وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه ، فقراء إليه ، وهو وحده الغنى عنهم ، وكل أهل السموات والأرض يسألونه ، وهو لا يسأل أحداً .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة ، والعبودية ، وهو ذل الاختيار ، وهذا خاص بأهل طاعته ، وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة ، فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل :

اخضَعْ وَذِلَّ لمن تحب ، فليس في حكم الهوى أنْف يُشَال ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهل الحب ، حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر [1]

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية .

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع : كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ، إذ يذل له خوفاً وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقراً وفاقة [2] .

* * *

٣ - تبديل السيئات حسنات :

ومن ثمار التوبة : ما ذكره الله تعالى فى كتابه من تبديل سيئات التائبين حسنات .

وهو قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [3] ،وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح،وهو حقيقة التوبة ، قال ابن عباس ﷺ « ما رأيت النبى ﷺ فرح بشىء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت،وفرحه بنزول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [4] .

واختلفوا فى صفة هذا التبديل ، وهل هو فى الدنيا ، أو فى الآخرة ؟ على قولين :

---

(١) فى هامش الأصل من (المدارج) :

أذل لمن أهـــوى لأكســب عزة وكم عزة قـــد نالهـــا المرء بالذل

إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلا له ، فاقْرَ السلام على الوصل

(٢) انظر : مدارج السالكين : ١ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) الفرقان : ٧٠ . (٤) الفتح : ١ ، ٢ .

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها ، فبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنى عِفَّة وإحصانًا ، وبالكذب صدقًا ، وبالخيانة أمانة .

فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ، بدلوا عوضها صفات جميلة ، وأعمالا صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة .

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى فى جامعه : عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار : يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، ويخبأ عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وهو مقر لا ينكر ، وهو مشفق من كبارها ، فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة ، فيقول : إن لى ذنوباً ما أراها ههنا ! قال أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » .

قال ابن القيم : فهذا حديث صحيح ، ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر ، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار ، ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطى مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه ، وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات ، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب ، والكلام إنما هو فى تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، فزادت حسناته ، فأين فى هذا الحديث ما يدل على ذلك ؟ .

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به فى تفسير هذه الآية على هذا القول ، وقد علمت ما فيه ، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين .

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته ، وهى أن الذنب لابد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية

تارة ، وبالمصائب المكفرة تارة ، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة ، وكذلك إذا اشتد أثره ، ولم تقو تلك الأمور على محوه ، فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث ، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه ، فإذا بقى عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان ، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه ، فيصلح حينئذ لدار الملك .

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح ، وهى أقوى الأسباب ، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار ، فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطى مكان كل سيئة حسنة ، فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة ، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلى الله ، وإزالة النار بدل منها ، وهى الأصل ، فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول .

يوضحه : أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة ، إذ هو توبة تلك السيئة ، والندم توبة ، والتوبة من كل ذنب حسنة ، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التى حلت محله وهى حسنة ، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار ، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه .

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة ، وقد تكون دونها ، وقد تكون فوقها ، وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق التائب فيها ، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة ، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها .

يوضحه : أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعاً ، وأحب إلى الله من عصـــمته من ذلك الذنب : من ذل وانكسار وخشية ، وإنابة وندم ، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه ، حتى يقول الشيطان : ياليتنى لم أوقعه فيما أوقعته فيه ، ويندم الشيطان على إيقاعه فى

الذنب ، كندامة فاعله على ارتكابه ، لكن شتان ما بين الندمين ، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه ، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة ، فيحصل من العبد مراغمة العـــدو بالتوبة والتدارك ، وحصـــول محبوب الله من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا ، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات .

وتأمل قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ولم يقل مكان كل واحدة واحدة ، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل .

وأما فى الحديث : فإن الذى عذب على ذنوبه لم يبدلها فى الدنيا بحسنات ، من التوبة النصوح وتوابعها ، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات ، فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة . وسكت النبى ﷺ عن كبار ذنوبه ، ولما انتهى إليها ضحك . ولم يبين ما يفعل الله بها ، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة ، ولكن فى الحديث إشارة لطيفة إلي أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين :

أحدهما : قوله « اخبئوا عنه كبارها » فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها ، وطمع فى تبديلها ، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده من تبديل الصغائر ، وهو به أشد فرحاً واغتباطاً .

والثانى : ضحك النبى ﷺ عند ذكر ذلك ، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان ، وما يُقِرُّ به على نفسه من الذنوب ، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها ، وإنما عرضت عليه الصغائر .

فتبارك الله رب العـالمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، البر اللطيف ، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

٤ - الانتصار على العدو الدائم :

ومن ثمار التوبة : الانتصار على العدو الدائم للإنسان ، وهو الشيطان ، الذى أقسم أمام الله تعالى : ليضلن بنى آدم ، وليغوينهم أجمعين ، وأكد ذلك القرآن فى عدة سور بأساليب شتى، كلها تدل على إصرار هذا اللعين على إهلاك الإنسان كما هلك هو باستكباره وتمرده على ربه .

فبعد أن طرده الله من السماء ، وأخرجه مذؤوما مدحورا ، وكتب عليه اللعنة إلى يوم الدين : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

ولقد نفذ اللعين وعده ، وبر فى قسمه وهو كذوب ، ولم يتوان ساعة فى تزيين الشر ، وتحسين الباطل ، وإضلال الناس فى الاعتقاد والفكر ، وإغوائهم فى العمل والسلوك ، حتى سئل الحسن البصرى رضي الله عنه : هل ينام الشيطان ؟ قال : لو نام لاسترحنا منه بعض الوقت ! ولكنه لا ينام ولا يأخذ إجازة ، ومن هنا وجب التيقظ لعداوته ، والتنبه لمكايده ، والتفطن لكل المداخل التى يدخل منها ، والثغرات التى يستغل غفلة حراسها ، ليتسلل إليها ، ويقفز منها إلى داخل حصوننا ليهدمها من داخلها .

لهذا حذرنا الله تعالى منه أشد التحذير ، وبصرنا أبلغ التبصير ، فقال تعالى :

---

(١) الحجر : ٣٩ . (٢) الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّما يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

هذا العدو عدو دائم ، لا يقبل صلحا ولا هدنة ، ولا يرضيه إلا هلاك بنى آدم ، الذى كان سبب عداوته لهم الحسد ، وقد قال الشاعر :

كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد !

وقال معاوية : أستطيع أن أرضى كل الأعداء ، إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتى !

وكلما أوقع الشيطان اللعين ، بنى الإنسان فى براثن الذنوب ، قرت عينه ، وغمرته الفرحة ، بما أصاب من عدوه ، وكلما استنارت بصائرهم ، واستيقظت ضمائرهم ، بعد المعصية ، فتابوا إلى الله واستغفروه ، أدركته الحسرة ، وركبه الغم ، لضياع جهده سدى ، ولهذا يروى عن إبليس أنه قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، فأهلكونى بالتوبة والاستغفار .

ويروى أيضا أنه قال لربه : بعزتك لأظلن أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل : وبعزتى لأظلن أغفر لهم ما استغفرونى .

لقد انتصر الشيطان اللعين على الإنسان فى أول الأمر حين أوقعه فى المعصية ، ثم انتصر عليه الإنسان حين رجع إلى الله بالتوبة .

* * *

(١) فاطر : ٦ . (٢) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ .

٥ - الانتصار على النفس الأمارة بالسوء :

ومن ثمرات التوبة : انتصار التائب على شهوات نفسه ، التى بين جنبيه ، والتى تدفعه - بما ركب فيها من غرائز ودوافع فطرية - إلى مقارفة الشر ، والمعصية ، والتكاسل عن الخير والطاعة ، وهى النفس التى سماها القرآن : أمارة بالسوء ، حين قال على لسان امرأة العزيز في قصة يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)

وهذه الصيغة (أمارة) تدل على المبالغة والكثرة ، فهى دائمة الأمر بالسوء ، والإغراء به ، والتحريض عليه ، وكثيرا ما يضعف الإنسان أمام إغراءاتها وتحريضاتها، وتسترخى إرادته ويستجيب لداعيها ، حتى إن القرآن الكريم قص علينا قصة أول جريمة قتل وقعت فى تاريخ البشرية ، وفى فجر حياتها قبل أن يعرف الناس كيف يوارون جثث موتاهم ، وذلك فى قصة ابنى آدم التى قص الله علينا نبأهما بالحق · ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

فانظر كيف تهوى نفس الإنسان به إلى أى درك ؟ حتى تطوع له قتل أخيه الطيب الخير بلا جرم جناه ، إلا أن الله تقبل منه قربانه ولم يتقبل من الآخر ، وما ذنب الأخ المسكين فى ذلك ، حتى يكون جزاؤه القتل ؟ ·

إن هذه النفس إذا تركت لغرائزها وحدها أهلكت صاحبها ، ولابد من مجاهدتها ورياضتها حتى تتزكى فتفلح ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (٣) .

---

(١) يوسف : ٥٣ · (٢) المائدة : ٢٧ - ٣٠ ·

(٣) الشمس : ٧ - ١٠ ·

وبهذا تنتقل من النفس (الأمّارة) إلى (النفس اللوامة) التى ذكرها القرآن فى مطلع سورة القيامة حين قال : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[1] .

و (اللوامة) صيغة مبالغة من اللوم ، فهى كثيرة اللوم لصاحبها كلما ارتكب شرا ، أو قصر فى خير ، وهى ما نعبر عنه الآن بـ (الضمير الحى) ، وهى التى لا تزال تلوم صاحبها حتى تدفعه إلى التوبة .

وقد ترتقى هذه النفس حتى تصبح (النفس المطمئنة) المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[2] .

ولا ريب أن التائب إلى ربه توبة نصوحا ، قد انتصر فى هذه المعركة الكبيرة التى عبرت عنها بعض الكلمات المأثورة التى تقول : « المؤمن بين خمس شدائد : بين مسلم يحسده ، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله ، وشيطان يضله ، ونفس تنازعه » إنها معركة كثيرة الأعداء ، متعددة الميادين ، متنوعة الأسلحة ، معركة فى الداخل والخارج ، تحتاج إلى يقظة وتأهب واستعداد ، للجهاد الدائم ، والبذل المستمر ، والمنصور من نصره الله .

* * *

٦ - انكسار القلب لله :

ومما ثمار التوبة العاجلة : انكسار القلب لله الجليل العظيم ، والشعور بحقيقة العبودية والضراعة بين يديه سبحانه ، وفى بعض الآثار الإلهية : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .

فالتوبة النصوح تحدث فى قلب التائب كسرة خاصة لا يشبهها شىء ، ولا تكون لغير المذنب ، الذى شعر بذنبه ، وحاصره من كل جانب، فهو يريد أن يصطلح

---

(١) القيامة : ١ ، ٢ . (٢) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

على ربه ، ويقف على بابه ، بعد الجفوة التى باعدت بينه وبين مولاه بسبب المعصية ، ولكن هذه المعصية ولدت له خيرا، ورب ضارة نافعة، وكم من منحة فى طى محنة .

لقد كانت مصيبة المعصية سببا فى إفاقته ويقظة ضميره ، وصحوة قلبه ، وغلبة إحساسه بفضل ربه ، وتفريط نفسه ، فيحدث له هذا تحولا فى حياته من الشر إلى الخير ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الضياع إلى الالتزام ، ومن الإعراض إلى الإقبال .

وفى هذا يقول ابن عطاء الله فى حكمه : ربما فتح الله لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القَبول ، وربما قدر عليك المعصية فكانت سببًا فى الوصول . معصية أورثت ذلا لله وانكسارا ، خير من طاعة أورثت عُجبا واستكبارا .

هذا الشعور الحى ، وهذا التصور الواعى ، وهذه الصحوة القلبية : ثمرة لهذا المشهد الذى عبر عنه ابن القيم بمشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار للرب جل جلاله .

فيشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة ، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه ، وفلاحه ، وهداه وسعادته ، وهذه الحال التى تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تدرك بالحصول ، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شىء .

فحينئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً ، فأى خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به ، وسياقته إليه ، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقل ما ينبغى لربه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فإن الكسرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم ، وأحب القلوب إلى الله سبحانه : قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو ناكس الرأس بين يدى ربه ، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله .

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء ، فهذا سجود القلب .

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه ، وإذا سجد القلب لله - هذه السجدة العظمى - سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم ، فلا يُرَى إلا متملقا لربه ، خاضعا له ، ذليلا مستعطفاً له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذى لا غنى له عنه ، ولا بد له منه . فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه ، لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه ، ومحبته له ، يقول : كيف أُغضِب من حياتى فى رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبه وذكره ؟ (١) .

* * *

٧ - محبة الله تعالى :

ومن ثمار التوبة : الحصول على محبة الله تعالى ، فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) المدارج ١ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

والحصول على محبة الله تعالى ليس بالأمر الهين ، ولا الكسب الضئيل ، إنها شيء كبير لا يقادر قدره ، ولا يعرفه إلا أهله .

وإذا كان الناس يسعون جهدهم ، ويبذلون وسعهم ، للحصول على محبة رئيس أو أمير أو ملك ، أو غيرهم من كبراء الدنيا ، فإذا ظفر بذلك اعتبر نفسه قد فاز فوزا عظيماً ، وفاخر بهذه المحبة أقرانه ، مع أن هذا الرئيس ، أو الأمير لا يستطيع أن يزيد فى رزقه درهما لم يكتبه الله له ، ولا أن يؤخر أجله ساعة ليست من عمره ، ولا يملك أن يهب له سكينة فى قلبه ، أو راحة لضميره ، أو صلاحا لذريته ، أو قرة عين بزوجه ، أو نحو ذلك من طيبات الحياة التى لا يجدها الملوك أنفسهم ، فكيف يهبونها لغيرهم ، وفاقد الشيء لا يعطيه ؟ .

إن المسلم يرنو بعينه ، ويهفو بقلبه ، ويسعى بجهده ، لكى يرتقى إلى محبة الله تعالى ، لكى يكون محبوبا لله رب العالمين ، وأى منزلة أسمى من هذه المنزلة التى عبر عنها الحديث القدسى الشريف الذى رواه البخارى : « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ... ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وإنما يحب الله التوابين ؛ لأنه يكره من عباده الشرود عنه ، والبعد عن ساحته ، والوقوع فى أسر عدوه الشيطان ، ويحب منهم أن يرجعوا إليه ، ويقفوا على بابه ،وإن عصوه وقصروا فى حقه جل شأنه ، فبابه لهم مفتوح ، ويده إليهم مبسوطة أبدا ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ولا يردهم عن عتبته ، ويناديهم « لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

ومن ناحية أخرى ، نجد التائب - بعد تورطه فى معصية الله - يشعر بشدة الحاجة إليه ، والافتقار إلى رحمته ، والانكسار بين يديه ، وعمق الإحساس بحقيقة العبودية له ، وغاية الخضوع لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

ومن هنا قال العارفون : إن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله تعالى وأكرمها عليه ، فإنه سبحانه يحب التوابين .

ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة ، وزيادة محبته لعبده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة . يوضح ذلك :

الوجه الثانى : أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات ، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدَّوِيّة المهلكة ، بعد ما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة ، ولم يجىء هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة ، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيما فى حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه ، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد ، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية ، فيصير حبيباً لله ، فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب ، يوضحه :

الوجه الثالث : أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة ، فإن الذل والانكسار روح العبودية ومخها ولبها ، يوضحها :

الوجه الرابع : أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ، فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذل الفقر ، والعبودية ، والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية ، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه ، كما فى الأثر الإسرائيلى « يا رب أين أجدك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ولأجل هذا كان « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه .

وتأمل قول النبى ﷺ ، فيما يروى عن ربه عز وجل « أنه يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى ، قال : يا رب ، كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما لوسقيته لوجدت ذلك عندى ، ابن آدم ، مرضتُ فلم تعدنى ، قال : يا رب ، كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتنى عنده » فقال فى عيادة المريض « لوجدتنى عنده » وقال فى الإطعام ، والإسقاء « لوجدت ذلك عندى » ففرق بينهما ، فإن المريض مكسور القلب ولو كان من كان ، فلابد أن يكسره المرض ، فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده .

وهذا - والله أعلم - هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم ، والمسافر ، والصائم ، للكسرة التى فى قلب كل واحد منهم ، فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد فى نفسه ، وكذلك الصوم ، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية ، ويذلها .

والقصد : أن شمعة الجبر والفضل والعطايا ، إنما تنزل فى شمعدان الانكسار ، وللعاصى التائب من ذلك أوفر نصيب : يوضحه :

الوجه الخامس : أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة ، من كثير من الطاعات ، وهذا معنى قول بعض السلف « قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نُصْبَ عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى : ذكر ذنبه ، فيحدث له انكساراً ، وتوبة ، واستغفاراً ، وندماً ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة ، فلا تزال نصب عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنة ، فتكون سبب هلاكه ، فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات ،

ومعاملات قلبية ، من خوف الله والحياء منه ، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً ، باكياً نادماً ، مستقبلا ربه ، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة ، وكبراً ، وازدراء بالناس ، ورؤيتهم بعين الاحتقار ، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله ، وأقرب إلى النجاة والفوز ، من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المانّ بها ، وبحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك ، فالله شهيد على ما فى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ، ويخضعوا له ، ويجد فى قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيه ذلك كامناً [1] .

* * *

٨ - فرح الله بالتائب :

ومن ثمار التوبة : نيل الفرحة الكبرى التى لا تعادلها ولا تدانيها فرحة ، إنها فرحة الرب الأعلى ، رب العالمين ، بتوبة عبده ، ورجوعه إليه بعد شروده عنه ، ووقوعه أسيرا فى يد عدوه وجنوده : إبليس اللعين ، وهو بالتوبة قد فك أسره ، وخرج من سجنه ، وخلص من عدوه ، وعاد إلى رحاب ربه وحبيبه ، الذى غمره بإحسانه ، وأحاطه بنعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية ، المادية والمعنوية .

إنها الفرحة الكبرى التى لا نجد فى تصويرها والتعبير عن مداها أبلغ من حديث رسول الله ﷺ الذى رواه عنه ابن مسعود أنه قال : « لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا ، وبه مهلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه ، فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فرجع ، فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، إذا راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه ! فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن ، من هذا براحلته » [2] .

---

(١) انظر : المدارج : ١ / ٢٩٧ - ٢٩٩ .

(٢) متفق عليه .

ولقد تحدث ابن القيم عن هذا الفرح الإلهى بتوبة التائب حديثا بليغا فياضا ، بين فيه أن هذا الفرح له شأن لا ينبغى للعبد إهماله والإعراض عنه ، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته ، وما يليق بعز جلاله .

قال : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله ، وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق كل شىء له ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواص والأحبار ، وجعلهم معدن أسراره ، ومحل حكمته ، وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب ، مداره على النوع الإنسانى ، فإنه خلاصة الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهى ، وعليه الثواب والعقاب .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شىء ، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن بابه ، إذْ لم يسجد له مع الساجدين ، واتخذه عدوًا له .

والمؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتواتر إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة ، والعاجلة والآجلة ، التى لا تنال إلا بمحبته ، ولا تنال محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه ، فاتخذه محبوباً له ، وأعد له أفضل ما يعده محب غنى قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه ، وأعلمه فى عهده ما يقربه إليه ، ويزيده محبة له وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليه ، ويسقطه من عينه .

وللمحبوب عدو ، هو أبغض خلقه إليه ، قد جاهره بالعداوة ، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليهم ومعبودهم الحق ، واستقطع عباده ، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم ، وكانوا أعداء له مع هذا العدو ، يدعون إلى سخطه ، ويطعنون فى ربوبيته وإلهيته ووحدانيته ، ويسبونه ويكذبونه ، ويفتنون أولياءه ، ويؤذونهم بأنواع الأذى ، ويجدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم ، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه ، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه ، فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وما لهم ، وحذره موالاتهم والدخول فى زمرتهم والكون معهم .

وأخبره فى عهده : أنه أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمته غضبه ، وحلمه عقوبته ، وعفوه مؤاخذته ، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر ، وأن الفضل كله بيده ، والخير كله منه ، والجود كله له ، وأحبُّ ما إليه : أن يجود على عباده ويوسعهم فضلا ، ويغمرهم إحساناً وجوداً ، ويتم عليهم نعمته ، ويضاعف لديهم منته ، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه .

فهو الجواد لذاته ، وجود كل جواد خلقه الله ، ويخلقه أبداً : أقل من ذرة بالقياس إلى جوده ، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو ، وجود كل جواد فمن جوده ، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان ، والبر والإنعام والإفضال : فوق ما يخطر ببال الخلق ، أو يدور فى أوهامهم ، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ ما يعطاه ويأخذه ، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً ، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها ، فما الظن بفرح المعطى ؟ ففرح المعطى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ، ولله المثل الأعلى .

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذى خلقه لنفسه ، وأعد له أنواع كرامته ، وفضله على غيره ، وجعله محل معرفته ، وأنزل إليه كتابه ، وأرسل إليه رسوله ، واعتنى

بأمره ولم يهمله ، ولم يتركه سدى ، فتعرض لغضبه ، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه ، ووالى عدوه وظاهره عليه ، وتحيز إليه ، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التى هى أحب شىء إليه ، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام : فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف بما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه ، وأن يصير غضبه وسخطه فى موضع رضاه ، وانتقامه وعقوبته فى موضع كرمه وبره وعطائه ، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه ، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان .

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة ، إذ انقلب آبقاً شارداً ، راداً لكرامته ، مائلا عنه إلى عـدوه ، مع شـــدة حاجته إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين .

فبينما ذلك الحبيب مع العدو فى طاعته وخدمته ، ناسياً لسيده ، منهمكا فى موافقة عدوه ، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله : إذا عرضت له فكرة ، فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه ، وعلم أنه لابد له منه ، وأن مصيره إليه ، وعرضه عليه ، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قُدم به عليه على أسوأ الأحوال . ففر إلى سيده من بلد عدوه ، وجَدَّ فى الهرب إليه حتى وصـل إلى بابه ، فوضع خده على عتبة بابه ، وتوسد ثرى أعتابه ، متذللا متضرعاً ، خاشعاً باكياً آسفاً ، يتملق سيده ويسترحمه ، ويستعطفه ويعتذر إليه ، قد ألقى بيده إليه ، واستسلم له وأعطاه قياده ، وألقى إليه زمامه ، فعلـم سيده ما فى قلبه ، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ، ومكان الشدة عليه رحمة به ، وأبدله بالعقوبة عفواً ، وبالمنع عطاء ، وبالمؤاخذة حلماً ، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله ، وما هو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ؛ فكيف يكون فرح سيده به ؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً ، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه ، وفتح طريق البر والإحسان والجود ، التى هى أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة ؟ .

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهى بالإحسان والجود والبر .

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبوداً : فذاك مشهدٌ أجل من هذا وأعظم منه ، وإنما يشهده خواص المحبين .

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته ، وهذا هو الحق الذى خُلقت به السموات والأرض ، وهو غاية الخلق والأمر ، ونفيه - كما يقول أعداؤه - هو الباطلُ ، والعبث الذى نزه الله نفسه عنه ، وهو السُّدَى الذى نَزَّهَ نفسه عنه : أن يترك الإنسان عليه ، وهو سبحانه يحب أن يُعْبَدَ ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له ، وطاعتهم له ، ودعاؤهم له .

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلا وسدى ، وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين ، والإلّه الحق ، فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية ، فقد خرج عن أحب الأشياء إليه ، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة ، وصار كأنه خلق عبثاً لغير شيء ، إذا لم تخرج أرضه البذر الذى وضع فيها ، بل قلبته شوكا وَدَغَلا ، فإذا رجع إلى ما خلق له وأُوجد لأجله : فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره ، ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها ، وخرج عن معنى العبث والسدَى والباطل ، فاشتدت محبة الرب له ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقَدَّر من الفرح ، ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى ﷺ لذكره ، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه فى سفره ، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده ، وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه،ثم وجده وصار طوع يده، فلا فرحة أعظم من فرحته به .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًّا شديداً ، أسره عدوك ، وحال بينك وبينه ، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ، ويُعَرِّضه لأنواع الهلاك ، وأنت أولى به منه ، وهو غَرْسُك وتربيتك ، ثم إنه انفلت من عدوه ، ووافاك على غير ميعاد .

فلم يفجأك إلا وهو على بابك ، يتملقك ويترضاك ويستعينك ، ويمرغ خديه على تراب أعتابك ، فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصصته لنفسك ، ورضيته لقربك ، وآثرته على سواه ؟ .

هذا ، ولست الذى أوجدته وخلقته ، وأسبغت عليه نعمك ، والله عز وجل هو الذى أوجد عبده ، وخلقه وكـوّنه ، وأسبغ عليه نعمه ، وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مظهراً لنعمه ، قابلا لها ، شاكراً لها ، محباً لِوَلِيِّها ، مطيعًا له ، عابدًا له ، معادياً لعدوه ، مبغضاً له عاصياً له ، والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، كما يحب أن يوالى الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده ، فتنضاف محبتـه لعبادته وطاعـته والإنابة إليه ، إلى محبته لعداوة عدوه ، ومعصيته ، ومخالفته ، فتشتـد المحبة منه سـبحانه ، مع حصول محبوبه ، وهذا هو حقيقة الفرح [1] .

* * *

(١) مدارج السالكين : ١ / ٢٦٤ - ٢٦٦ .